رواية
جبل الذئاب
إيلي سامي حنوش

كوخ صغير على سفح جبل غامض تعلو قمته غيوم بيضاء كالقطن ، و تصدر من جنباته أصوات عواء الذئاب ، شاب قوي البنية يحمل في يمناه فأساً ذو نصل احمر اللون ، و في يسراه حبلا ليس بطويل ، كان الشاب ذاهب للغابة ليقتطع بعضا من الحطب ليقيه من البرد القارص ، سار الشاب في طريق الغابة المليء باشجار التفاح ، كان يسير و هو شارد الذهن ، فهو شاب يعيش وحيداً قد ملأت الهموم حياته التي صارت رتيبة جداً ، مر الوقت بسرعة عندما وصل الشاب الى المنطقة التي اتخذها مكانا ليقطع الاشجار منه ، فهو يريد ان يزيل كل اشجار هذه البقعة ليبني عليها بستانه و خاصة انها قريبة من النهر ، لقد كان الشاب يكره الجبل فهو يملك ذكريات ليست بجميلة عنه ، فقد هاجمته الذئاب عدّة مرات و كان يدثرها بصعوبة ، فذئاب هذا الجبل متوحشة حقا ، و ها هو ذا الشاب قد انتها من قطع آخر الاشجار و قد كدّس اغصانها في رزمة و ربطها بالحبل جيدا ثم قام بحمل جزء منها على كتفه و ما لم يستطع تحمل وزنه قام بسحبه ورائه ، امضى الشاب آخر ساعة بصعوبة كبيرة حتى وصل الى الكوخ الذي يقطن فيه ،

دلف الشاب الى الكوخ و قد ظهرت على ملامحه علامات الاجهاد فقذف بنفسه على السرير المجاور لباب غرفته و غط في نوم عميق قطعته اصوات ذئاب تصدر من داخل المنزل ، قفز الشاب من سريره وكأن الذئب كأن معه في السرير ، فرك الشاب عينيه فهو لم يعرف الطريق الذي دخلت منه الذئاب ، تذكر الشاب نفسه عندما عاد من الغابة ، اجل لقد نسي الباب مفتوح و لم يغلقه كعادته ، لقد انهكته تلك الشجرة فقد كانت اكبر اشجار تلك البقعة ، كان الشاب ينظر من ثقب الباب و كان يرى ثلاثة ذئاب من الحجم الكبير تسير ذهابا و أيابا داخل غرفة المعيشة ، اولها ابيض اللون و الثاني اسود و الثالث اكثر سوداوية من سابقه ، ذلك السواد فيهما مريب جدا .

كان الشاب يلطم على رأسه من هول ما فعل و من الورطة التي ادخل نفسه فيها ، ثم فجأة و من غير سابق إنذار سمع صوت ارتطام بباب الغرفة و تلاه صوت خرمشه قوي ، كان الصوت وحده يدب الرعب في نفسه كما كان يكاد يصم الاذان ، تجمد الشاب لحظة و كانه استحال صخرة ، و فجأة تذكر النافذة التي تعلو السرير .

اجل النافذة ... تلك هي الجملة التي صاح بها الشاب و كانت تلك الصيحة كإشعار للموت او كتذكرة لدخول معدة احد أكبر تلك الذئاب ، اجل لقد فهمو ما قاله الشاب ، فهم مريبون على كل حال .

إنطلق الذئب الاكثر سوادا الى جهة النافذة فوجدها مفتوحة على اخرتها ، لقد نفد الشاب بجلده و استطاع التملص آنيا من تلك الاشكال الشريرة ، لكن هروبه لن يدوم طويلا جدا فقد بدأ الذئب هذا باشتمام اثار الشاب و قام بإصدار عواء يكاد يكسر زجاج النافذة التي تجاوره ، انطلق الذئبان الآخران الى جهة العواء و قاموا جميعا بلحاق الآثار .

كان الشاب خائفاً من بطش تلك الذئاب به ، كان يلهث و تكاد تنقطع انفاسه من شدة الركض ، لم يعد يحس بقدميه و كأنه اصبح آلة لا تعرف الا العدو سريعا بكل ما لها من سرعة و قوة .

كان يركض و يركض و لإول مرة في هذه الغابة هو لا يعرف طريقه ، يكاد لا يرى امامه من سرعة العدو و

فجأة هوى من اعلى الجرف و تدحرج الى الأسفل و صدم يده اليسرى بصخرة كانت لتسحق رأسه لولا تدخله باللحظة الأخيرة .

كان ينزف و تجري سواقٍ من الدموم من جرحه الى ساعديه ، كانت الدموع تترقرق في عينيه و لكنه لم يستطع التوقف عن الركض و خصوصاً انه سمع صوت عواء ليس ببعيد ، بدأت هذه الذئاب تثير ريبة الشاب .

كان الليل قد اسدل ستاره الدامس المرصع بالنجوم و الذي ينير في وسطه سراج ابيض اللون ناصع هو القمر ، فرش الشاب العشب و الاوراق بساطا على الارض و ارخى عليه جسده المتهالك لكنه لم ينم ، و لم يستطع النهوض و الركض تحت ظلام الليل ، فهو لم يستطع نفض فكرة انه إذا ركض ليلا سيلاقي المزيد من تلك الذئاب .

كان وحيدا كالعادة .. كئيباً .. فاقدا للامل تقريباً .. ينتظر ان ييسر الله امره ، اغمض الشاب عيناه و فتحهما و ايقن انه غفا فجأة ، و ها هو الصباح يدغدغ عيناه بأشعة

الشمس الذهبية و يبلل جبينه بقطرات الندى و يطرب اذناه بزقزقة العصافير ، ليت هذا السلام يدوم لفترة أطول ، تلك عبارة نطقها صاحبنا بعد أول نفس إلتقطه منذ استفاقته هذه ، و فجأة علت اصوات لاحد الذئاب تثير الرعب في قلب سامعها ، و إذا بالذئب الأسود يشق غمامة السلام تلك و يهوي على ساق الشاب ، و إذا بالشاب يطرق على رأس الذئب بكلتا قبضتيه عدّة مرّات و يركله في انسجام مع قبضتيه ، و في حالة من الألم المترافق مع اليأس ارخى الذئب اسنانه تدريجياً عن ساق الشاب ، تناثرت الدموم منها بغزارة ، بدأ يفقد الوعي شيئا فشيئاً ، لكن الشاب تمالك نفسه و في حركة سريعة جدا خلع القميص و ربط قدمه بها ليوقف التدفق ، و الذئب كان ينظر إليه بنظرة سخرية ممزوجة بالخبث و المكر الشديد ، و الغريب هنا انه انتظر الشاب حتى يربط قدمه .

كان الذئب ينظر اليه و انيابه تتساقط منها دموم الشاب و هو يلعقها باستمتاع و شر ، تلاقت عيون الشاب و عيون الذئب لبرهة من الزمن كانت تكفي لزوال لون قزحية الشاب رعبا ، اتسعت عينا الشاب و جحظتا فها هو يقف امام شيطان بمنظر ذئب ، و في لحظة ورود

هذا الاحتمال في افكار الشاب نطق الذئب ، اجل نطق .. و قال : انا الماضي الا تتذكرني انا اكثر افكارك و كوابيسك و اعمالك سوداوية .. لا يمكنك التخلص من الماضي .. الماضي لا يموت .. الماضي لا يفنى و لا يزول ... و لو شغلت نفسك عنه .. اجل انا انت الثاني انا ماضيك الأسود يا هذا .

هنا فزع الشاب و اصابه رهاب الماضي ، نوبة اتت على ذاكرته كما اعصار اجتاح قرية بسيطة ، زلزال هدم كل افكاره زعزع دعامات قلبه و شخصيته ، ترقرقة الدمعة ثانية في كلتا عينا الشاب و كأن موجا ضربهما ، لكنه تمالك اعصابه فهو شاب وحيد تعلم الاعتماد على ذاته ، تعلم اقتناء روحه على كلا الكفين و المحاربة بها في وجه العالم الظالم ، مسح عيناه و بقوة اطلق صيحة مدوية و كأنه وحش مفترس ، صيحة خرجت من جنبات قلبه و من ثنايا الذاكرة المؤلمة ، صيحة كان يكنّها للعالم ، صيحة اخرج بها الكثير من الغضب المحفور في كيانه ، صيحة التقط بعدها اولى شهقات الراحة في وقت لا يجب ان يرتاح به ، و قال : ان الماضي ماض فقط ايام عدت كما رياح الجنوب ، ايام دفعت ثمنها مسبقاً ،

ايام اخذت معها لون زهور الشباب و لونتها بالأسود ، انا لا اندم على اخطائي فقد دفعت ثمنها و انتهى الامر و كنت انا ضحيته فقط لم اؤذي احدا غير انا و الأنا .

هنا اطلق الذئب عواء كان فيه استعداد للانقضاض على فريسته ، و هذا ما فعله ، انطلق بأنيابه و براثنه الى ساق الشاب ذاتها مرة اخرى و عضها بكل لؤم و قوة ، هنا أدرك الشاب الموضوع و الحالة التي هو فيها ، اجل قال للذئب : إن الماضي لا يموت و إن الماضي لا ينسى و إن الماضي أساس للحاضر ؛ لكن إن كان الماضي بشعا و مؤلما مثلك فالتجاهل قاتله ، فالتجاهل يقتل كل ما له حياة ، يقتل العلاقات الجيدة منها و السيئة ، حب كانت ام كره ، خير كانت ام شر ، ايها الشيطان انا قاتلك بسيف التجاهل و إن خسرت ساقي ثمنا لقتلك .

فزع الذئب فزعا شديداً و في اثره تحولت نظرته الخبيثة الى نظرة خوف و رعب ، و اخذ يبتعد تدريجياً عن الشاب ، ابتعد بما فيه الكفاية لكنه بقي في مرمى نظر الشاب . وقف صديقنا على كلتا ساقيه بصعوبة و هو في صدد البحث عن نهر ليغسل جرحه الدامي ،

إنه في حال افضل الآن ، لقد بدأ يفهم ماهية الوحوش التي ظهرت له فجأة من العدم ، كان الماضي يطارد الشاب ، آه نسيت ان اخبركم ان الشاب قد سمى ذلك الذئب بالماضي ؛ تعرفون اسم على مسمى ؛ كلما تذكر الشاب الماضي يتقدم ذلك الذئب منه بضع خطوات ، و كلما تجاهله أُصيب ذلك الذئب بألم مبرح و تراجع بضع خطوات ، وصل الشاب الى شجرة عالية جداً فصعدها خشية ان يتذكر الماضي فجأة و ينقض الذئب على حنجرته و يمزقها ، أخذ معه إلى أعلى الشجرة بعضا من ثمار الغابة او ما استطاع ان تجمعه يداه .

حل الليل و صعد القمر عرشه الاسود لينير ارجاء قاعته و لتتوافد النجوم لتصطف حول القمر في منظر يحيي مملكة الليل الهادئة بكل ما فيها من سكان .

انطلق عزيف صراصير الليل مشكلا اقطوعة غريبة و جميلة ، اهي افتتاحية الليل ام هذه المرة هي بداية لصراع و معركة جديدة .

قهقه الرعد و دوى ساخرا من القمر بعد احتشاد

مناشديه من الغيوم السود ، اسكتت جماهير الامطار الهاطلة صوت مقطوعة الليل .

كان صديقنا على أعلى الشجرة نائما حتى هاجمه وابل الامطار هذا و دثر النوم بقوة من عيناه و بلل ملابسه و شعره و ذقنه ، كان هنالك عواء لذئبين إثنين كما تبيّن للشاب ، نظر من أعلى الشجرة فوجد منظرا يدب الرعب في نفسه ، إذ رأى ذئبا بشعا اكثر من سابقه يخرج الزَبَدُ من فتحات أسنانه .

كان المنظر يكفي لخلع قلوب جحفل كامل ، فكيف و هو وحيد هنا .. على أعلى الشجرة .. في الليل الدامس العاصف ... اما حان للحظ ان يطرق بابه ام انه تاه و لم يجد العنوان ، كانت افكار الشاب تجيء و تروح ، يفكر في أي قطعة سيبدأ هذا الذئب بالإلتهام ، اهي الساعد .. ام الرقبة ... ام .. سيعاودون نهش ساقه الجريحة .... ، مثل تلك الافكار هي ما دبت الرعب في نفسه اكثر و اكثر ، هي ما جففت ريقه و دمع في ثوانٍ معدودة .

فكر الشاب ان يتحدث الى الذئب و يحاول مجاراته بالحديث لاكثر وقت ممكن ... او ربما ينجح بفعل ما فعله بسابقه .. اجل .. قام الشاب و تقدم الى حافة الشجرة ، و فجأة قفز الذئب بكلا مخلبيه محاولا فقع عيني الشاب ، فلما فشل وقف امامه و مازال الزَبَدُ يخرج من فمه بغزارة .

اتى حراس الرياح و دثروا بقدومهم جحفل الغيوم الماطر بعيدا ، لم يصمت الرعد و بقي يومض مهدداً بالعودة ، مرّت النسمات بين اغصان الشجر تحثّها على الصياح ، فكانت اولى كلماتها لاعنة للحروب بين ابناء مملكة الليل ، مشددة على السلام الدائم ، ناسية الماضي و الحاضر متطلعة للمستقبل الجميل الذي سيغدو حاضرنا الأبيض الناصع ، داعية للاخاء و الحب .

ذهبت العاصفة أدراجها ، انقشعت الغيوم ، سيطر القمر على مملكة سماء الليل ، تربع على عرشه من جديد كما كان ، لينير ارجاء قاعته مرة أخرى و ليدعو النجوم لتصطف حوله ، ليست خيالاً بل هي (مملكة الليل) .

بعد هدوء العاصفة و إنارة المكان بنور القمر ، ظهر لأول مرة وجه هذا الذئب بكل قسماته للشاب ، كان مرعبا و فيه ملامح القسوة و الحدة التي لا تخلوا من الجمال .. كان مريباً .. ليس لانني قلت مريب لكن .. بعد هذه العاصفة بكل امطارها لم تتبلل فراؤه بأي قطرة ماء !!!

كان صديقنا واقفا امام اكثر ما ستراه عيناه قساوة و ألماً للنفس ، هنا و في هذه اللحظة تقدم الذئب بكل كبرياء و هيبة من ثم ..... هجم على ساق الشاب الأخرى و اصابها بجرح أعمق من سابقه بكثير و هوى بعدها على ساقه الأولى و فتح جرحها بمخالبه ، هنا خرّ الشاب على ركبتيه راكعا امام هذا الكيان الشرير ، تلاقت عيونهما لحظةً واحدة ، تراجع الشاب للوراء رعبا و هو يجثو على ركبتيه و الدموم تلطخ خطاه ، كان الشاب يكاد يموت ألماً يحاول استجماع ما بقي فيه من روح و النطق بأي شيء يكلم به الاطلس العسال هذا ، لكن الذئب بادر بالكلام اولا فقال للشاب :

من أنت يا هذا حتى تقف امامي ، انا لا يقف امامي إنسان ، انا من يجثوا الملوك تحت مخالبي ، انا اول الطليعة دائما ، انا من لا تستطيع ان تتخطاني مهما

حاولت و مهما كنت ايها البشري الضيف ، بحركة بسيطة مني عرّفتك على مكانك ، اي راكعا امامي ، انا من اسبب لك القهر و العذاب و الرفض و المعاناة و الخيانة و الغدر و حتى الحب و الصدق و الوفاء انا من يتحكم بكم الآن ايها البشر ، انا الحاضر اي انا الآن و لا يوجد طريقة لتعيش بغير ارشاداتي يا هذا .

في هذه اللحظة تقدم صديقنا محاولا الوقوف تدريجياً على قدميه الداميتين و هو يقول : انت الحاضر الذي اذاقني المر ، انت من اذقتني من آهات العذاب اطنانا انت سبب قهري سبب موت والداي سبب ....
هنا قفز ذئب الماضي و كأن الشاب مهد له الطريق بفتحه سراديب الذاكرة المؤلمة .
نظر الماضي الى الشاب نظرة شر تخلو من اي قطرة للشفقة ، نظرة اعلن بها حرب الألم المترافق بالحزن ، سنَّ رماح الفقد و رماها بقلب الشاب ، اصاب صميمه مخترقاً التامور و الشغاف .
هنا اصيب صديقنا بنوبة أُخرى نوبة من الكلام الممتزج بالدموع الطاهرة ، فأكمل كلامه متجاهلا تدخل

الماضي :
انت سبب يتمي و سبب وحدتي و لا غيرك السبب في إدخالي بسجل المجرمين انت ...

هنا قاطعه الماضي قائلاً :
تذكرت الآن ، تذكرت ايها المجرم الصغير ، تذكر اكثر و اكثر فأنا عاشق لألم الذكريات و للندم هيا اكمل .

انت من كان سبب دخول اللص كوخنا و قتل والدي ، انت السبب في ايجادي لتلك السكين ، انت السبب وراء هجومي عليه و تمزيق حنجرته و اقتلاع قلبه و فقراته حقداً ، انت السبب ليس الإنتقام فقط ، لقد كنت في عمر السبع سنوات ، كيف لطفل فعل هذا بدون مرشد ، انت السبب ايعا اللعين و ذلك الاحمق بجانبك لن اسامحكما ما حييت و إن كان انتقامي سيكلفني حياتي ، سأسعى للانتقام و لو كان هذا يومي الاخير .

قهقه الذئبان كما الجان و جلسوا ببرودة اعصاب على غير العادة يراقبون موت الشاب قهرا ، هنا ادرك الشاب ما يفعلانه و قال :

اجل .. انا اشكركما ايها الحاضر و ايها الماضي فلولا ما فعلتماه لما بقيت حيا ، انظرا الى الجانب الأبيض في سوادكما هذا ، ليس ابيض لكن رمادي ربما ، المهم .. صحيح ان والديّ قد قتلوا لكنني انتقمت لهما و حكمت المحكمة عليّ بالبراءة فأنا دافعت عن نفسي أولا و آخرا ، عشت وحيداً لكن اخذت الامور الحسنة من الحياة ، تصلّب عودي ، تعلمت الإعتماد على نفسي و ذاتي ، زرعت احلامي و سقيتها و في المستقبل ساحصد ما زرعت ، كل هذا فعلته في حاضري و ماضيّ .

هنا بدا الانزعاج على وجوه الذئاب ، تراجعا الى الخلف تارة و تقدما للامام تارة اخرى .

هنا تربّع الشاب امام الذئاب و قال :
سأحيا الحاضر بسعادة و قناعة و سأتجاهل مرارة الماضي و آلامه ، سأتطلع للمستقبل الابيض .
هنا و بدون سابق انذار قفز الذئب الابيض بغموضه و هيبته و كامل جماله ، جلس الى جانب الشاب ، تحول من ملامح القسوة و العذاب الى هذه الملامح ، صحيح إن رصاصة الماضي التي اصابت الحاضر ستصيب المستقبل

بشظاياها ، ستؤثر عليه حتما لكن يمكن استئصال هذه الشظايا و العيش بسلام .

ذئب الماضي يحتضر ، لا ليس كأي إحتضار ، إن كيانه الأثيري يتلاشى ببطئ ، يموت ...

لننظر إلى ذئب الحاضر ، لقد أصبحت ملامحه اقل قسوة و تبدلت بعض خصلاته الى اللون الرمادي و الأبيض ، لن نرى لمعة نجم الأمل إن لم يكن هناكَ ظلام ، لقد بدأ هذا النجم يلمع .... بدأت ملامح القسوة تزول عن الحاضر و تنقشع غمامات الشر و الخبث ، بدأ يلين !!

ذهب الحاضر مسرعاً و ترك الشاب و شأنه ، عاش الشاب برفقة ذئب المستقبل ، كان هذا الذئب يؤنس وحدة الشاب ، كان يحرسه من سائر الذئاب الأخرى ، كان المستقبل صديقه الوحيد .

برفقة المستقبل بنى الشاب بستانه حقق حلمه ، اقتنى بعض الماشية و بعض الدواجن ، نظم الزرع و الأشجار ، عاش الحياة كما يريد ، بعبارة أخرى عمل بجد و

فاز بالمستقبل .

يا صديقي القارئ إفعل كما فعل هذا الشاب تجاهل ماضيك السيء و عش الحاضر بصبر و فز بالمستقبل الذي ترجوه .

مدونتي :

https://xtowxstories.blogspot.com